د. مصطفى عبد الفتاح

الضحية الصغيرة

رواية

الفارابي

الضَّحيَّة الصَّغيرة

الدكتور مصطفى عبد الفتاح

الضَّحيَّة الصَّغيرة

رواية

دار الفارابي

الكتاب: الضَّحيَّة الصَّغيرة
المؤلف: الدكتور مصطفى عبد الفتاح

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/ ٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آب ٢٠١٥
ISBN: 978-614-432-422-6

المحتويات

إهداء

إلى كلٍّ أبناء مجتمع يعيش في جاهليّة القوانين، في القرن الحادي والعشرين... مع كل محبتي، وخوفي الشَّديد ممَّا أراه في أفق هذه الأمَّة...

د. مصطفى عبد الفتاح

مقدّمة

تردَّدت كثيراً قبل أن أكتب هذه الرواية، لأنَّني أسعى دائماً إلى الوضوح التَّام في أيٍّ من المواضيع الَّتي أتناولها، ولأنَّني أخذت على عاتقي أنْ أكون فاعل خيرٍ، وقائل حقٍّ، وقاصد صدقٍ، بنسبة أو بأخرى، وبطريقةٍ أو بأخرى... إنَّني أرى أنَّ مجتمعنا الَّذي هو أهلنا، وأصدقاؤنا وشركاؤنا في الوطن، يعاني اعتلالات كبيرة وفوضى هائلة، قائمة بمجملها على حالة التخلُّف في الأنظمة والقوانين، أو وبجرأة أقول، على حالة: من اللَّاقانون، ينتج منها العديد من القضايا الاجتماعيَّة المؤلمة، ومن الحوادث المبكية، ومن القصص والرِّوايات المحزنة، التي تترك آثاراً لا يمحوها الزَّمن، ولا يغفرها الضَّمير، ولا يستوعبها العقل، بل على العكس تماماً، يمكنها أن تتفاعل لتنتج أحداثاً أشدُّ وأقسى، وأكثر هولاً وتأثيراً في نفوس بريئةٍ وقلوب صغيرة، وعقولٍ ما زالت صفحاتها بيضاء، وأحلامها جميلة...

من هذا الإحساس بهذا الواقع تجاوزت تردُّدي وقرَّرت أن أكتب روايتي الأولى، راجياً من القارىء الكريم أن لا يلومني على خطأٍ هنا، أو ألمٍ يعتصرني هناك، وراجياً من الله التَّوفيق...

د. مصطفى عبد الفتاح

الأمل

هذه الرِّواية حقيقيَّة، وأبطالها حقيقيُّون... وأبطالها هم ضحاياها... بدأت أحداثها الأولى مع بدايات عملي في إطار مهنتي كطبيب عام...

فلقد دأبت منذ اليوم الأوَّل لممارستي مهنتي كطبيب، أن أقيم علاقات محبَّة واحترام مع كلّ الَّذين سمحت لي الفرص أن أعرفهم، أو أن أتعرَّف إليهم، فمددت يدي إلى الجميع، ودخلت بيوت الكثيرين لأُعاين مرضاهم، وكنت صادقاً في محبَّتي هذه، لأنَّها كانت نابعة من قلبي، فلم أكن بمتصنِّعٍ لها ولا بكاذب ولا بمراوغ...

هي طينتي، وهي تربيتي، وهي أخلاق زرعها أهلي في كلّ تنهيدة وخفقة قلب، وشربة ماء... فأنا ابن عائلة فقيرة، نَاضَلَتْ، وكَابَدَت، وتحمَّلتِ المرَّ حتَّى استطاعت أن تؤمِّن لي مصاريف الدِّراسة، فأنا أعرف الفقر والفقراء، وأعـرف تماماً معنى

الحاجة، وذلّ السُّؤال، وأعرف شدَّة الألم وقسوته عندما يحتاج الواحد منَّا إلى جرعة دواءٍ ولا يمتلك ثمنها... كنت مؤمناً ومنذ اللَّحظة الأولى التي قرَّرت فيها أن أدرس الطبَّ، بالحبِّ الكبير الَّذي يجب أن يملأَ قلب الطَّبيب وهو يتعامل مع المرضى، بعيداً عن المصالح والأهواء والسِّياسات، والعصبيَّات.... كان لي مثلاً أعلى في الحياة، ويشرِّفني جدّاً أن أذكره، ولا أتردّد في ذكر اسمه أبداً على صفحات روايتي الأولى... كان طبيباً متفانياً في خدمة الناس بلا حدود، جعلني أعشق شخصيَّته وأمنِّي النفس أن أصبح طبيباً مثله في يوم من الأيام، يعطي لمجرَّد العطاء... إنَّه الطَّبيب الدكتور غسَّان الأشقر، أحد أعمدة الطبّ الأوائل في عكّار، وأحد أعمدة عكَّار الاجتماعية الفاعلة، التي لا يمكن نسيانها، أو حذفها من ذاكرة النَّاس مهما طال الزَّمن... لقد آمنت ومنذ اللحظة الأولى بأن الطِّبَّ مهنة الإنسانيَّة بامتياز، بل مهنة الصِّدق، والعفَّة والتَّعفُّف، والكرم، والعطاء، ومكافحة الألم، وبَلْسَمَةِ النُّفوس، وجَبْرِ القلوب المنكسرة... مارست هذا الإيمان بعد تخرُّجي في الجامعة طبيباً عاماً، وبعد انخراطي في العمل بشكل مباشر، وجديٍّ، بعد أن فقدت الأمل في متابعة دراسة التَّخصُّص، بسبب اختلال الوضع الماليِّ في لبنان آنذاك

وأقصد النصف الثاني من الثمانينات من القرن العشرين، حيث انهار الوضع الاقتصادي انهياراً كبيراً دراماتيكياً في آخر عهد الرئيس أمين الجميّل... فكانت العملة اللبنانيَّة تفقد من قيمتها في كلِّ يوم، ومن ثمَّ في كلِّ ساعة... فتحوَّلت مداخيل النَّاس إلى سراب، واستحال على الفقراء العيش، فكيف الأمر في التحصيل العلمي؟؟ نعم كانت الظروف قاسية جدّاً، قاهرة جدّاً، محطِّمة للأحلام، وللآمال، لكنَّني، قرَّرت أن أواجه قدري، فقررت العمل طبيباً عاماً، وأنا تنقصني الخبرة. ولكن كانت تسكنني الشجاعة والمحبة، فأردت أن أنجح، وأن أعمل، وأن أقف على قدميَّ أمام أهلي اَلذين ناضلوا سنوات طويلة ليصلوا بي إلى قمَّة أرادوها وأردتها، وتحمَّلنا كلَّ التَّحديات معاً... يحدوني أملٌ أن أصل إلى قمَّة الحبِّ في قلوبهم وضمائرهم... فأطلقت نفسي في مسيرة الألف ميل وأمام عيني يضيء نجمان: النجم الأول هو النجاح، والنجم الثاني هو الدكتور غسان الأشقر.

الباشا

بعد حوالى سنة على تخرُّجي، وممارستي مهنتي، طبيباً عاماً في قريتي الصَّغيرة المنسيَّة بين تلال عكار ووديانها، والقرى المجاورة لها، والتي كانت حاضنتي في تلك الفترة الصعبة، من الانهيار الاقتصادي الصَّعب، وللأمانة أذكر أسماء تلك القرى ابتداءً من قريتي حيزوق، ثم مشحة حيث كانت مركز عملي، ومزرعة بلده المجاورة، وعدبل، وكفرحرَّة، والسّويسة، وبيت الحاج، وكوشا، وخريبة الجندي، وإيلات... كلُّها كانت حاضنة لي، أذكر كلّ الناس الَّذين دعموني في بداية مسيرتي ووقفوا إلى جانبي وقفة الرجال... بعد تلك السَّنة، قرَّرت أن يكون مركز عملي في مركز عكار، وهو مدينة حلبا، التي شكَّلت بالنسبة إليَّ حلماً، لأنه هناك كلُّ الأطباء يعملون، وهناك تكون الحركة والعلاقة بالآخرين أوسع وأشمل... قرَّرت أن أحقِّق ذلك الحلم... أردت أن تكون عيادتي كطبيب

في حلبا، في جوار الأطباء الكبار... في جوار الدكتور غسان الأشقر، والدكتور يوسف فرح وغيرهما من كبار الأسماء في عالم الطبِّ في عكار... ولكنَّني إلى ذلك الحين لم أكن أمتلك في جيبي مالاً كافياً لذلك... وما كان عليَّ إلَّا أن أستدين!!! ومن الَّذي كان قادراً على أن يسلِّفك مالاً في ذلك الزَّمن الصَّعب؟؟ قصدتُّ صديقاً عزيزاً، وأيضاً للأمانة أذكر إسمه، إنَّه محمد علي شمو، والمعروف بـ:«أبو علي» فلم يخيِّبني، وكان لي صديقاً فعليّاً وسنداً حقيقيّاً، وبفضله استطعت أن أخطو خطوتي تلك التي كانت تمثِّل لي الحلم والأمل... ولكنَّني وجدت نفسي وأنا طريُّ العود بين عمالقة كبار... كانت المنافسة صعبة جدّاً، ولكنَّ أخلاقياتهم العالية سهَّلت عليَّ الانخراط في أجواء العمل في حلبا، وبدأت أستقبل المرضى، المريض تلو المريض، بأعداد قليلة، وبانتظار كبير، وصبر أكبر... كنت أمازح القادمين إليَّ بُغية التَّقرب، وأسامحهم ببدل المعاينات مراراً وتكراراً بغية التودُّد، للاستمرار واكتساب ثقتهم ومحبتهم... سعيت بكل ما استطعت لإقامة العلاقات الشخصيَّة والاجتماعيَّة مع كلِّ الَّذين تردَّدوا إلى عيادتي الصَّغيرة،

المتواضعة التي كنت أشعر وأنا أدخل إليها بفرح كبير، ينغصه آخر الشهر عندما كان يستحق عليَّ دفع إيجارها...

كنت أسأل عن المرضى، في ذاك الزمن الَّذي لم يكن فيه أيَّة وسيلة للاتصال والتواصل، إلَّا بالزيارة... فلم يكن في عكَّار هواتف لا عاديَّة ولا خلويّة... كنت أسأل عن صحتهم، وعن أحوالهم، وعن عائلاتهم، وعن أعمالهم... ولم أتردَّد يوماً في زيارة أيّ منهم إذا كان الأمر يستدعي ذلك...

ضمن هذا النمط من الصَّبر والانتظار، والفرح، وبينما كنت ذات يوم في عيادتي، دخل عليَّ رجل في السِّتِّين من عمره، هادىء الحركة، تعلو تقاسيم وجهه ابتسامة جميلة... محترماً في سلامه، وفي كلامه، ومظهره، وجلوسه، وشكواه... أصغيت إليه باحترام شديد، وبحبٍّ نابع من القلب، وبابتسامة فيها من الإعجاب بشخصه، والتقدير البالغ له ما يكفي... وبعد أن انتهى من كلامه، ووصفه لأوجاعه، سألته عن اسمه، وعن عمره، وعن مهنته، لأسجل ذلك في ملفٍّ طبيٍّ خاص به، أدوِّن فيه ما يجب، كما هي العادة عند الأطباء. فأجاب: اسمي: جان، وعمري ستون سنة، والآن لم أعد أعمل، ولكنَّني عملت في كلِّ الميادين الصَّعبة والقاسية في حياتي... فقلت له وبدون أي

تفكير مسبقٍ، وبدون أيِّ تردُّدٍ ولا قصدٍ، ولا أدري لماذا، أهلاً وسهلاً «بالباشا»، لم أقصد قطُّ قولها، وإنَّما نطقت بها لا إراديَّاً، ولكنها كانت مفتاح القصَّة كلِّها... ضحك جان وقهقه بصوت مرتفع، ونظر إليَّ وعيناه تدمعان من الضَّحك، قائلاً، سائلاً: يا دكتور: من الَّذي أخبرك أنَّني ملقَّبٌ «بالباشا»؟؟ بل قل لي كيف عرفت لقبي؟؟ أتعرفني من قبل؟؟ وأنا لا أعرفك يا دكتور؟؟ شعرت حينها بخجل شديد، واحمرَّ وجهي، وبدأ العرق يتصبَّب من جبيني، ورحت أعتذر منه قائلاً إنَّني والله لا أعرف ذلك ولم يخبرني أحد بذلك، وإنَّما قلت ما قلته من باب المزاح، وبشكل تلقائيٍّ وبدون أيِّ قصد سيِّء منِّي...

فأجاب: لا عليك، لا عليك... هو لقب يسعدني ويفرحني، ويذكِّرني بأيَّام الشَّباب... قل ذلك لي متى شئت، واكتب ذلك في الملفِّ إن أردت، فلا يزعجني الأمر بتاتاً... فارتاحت نفسي حينها واطمأنَّ بالي وأردفت قائلاً: أهلاً وسهلاً بك يا باشا، يا شيخ الشَّباب.

ومن هنا بدأت القصَّة الَّتي تمنَّيت من كلِّ قلبي وبكلِّ صدق، لو لم تكن أبداً...

عائلة الباشا

مرت الأيام، ومرت الشهور، وكان «الباشا» يتردَّد من وقت إلى آخر لزيارتي في عيادتي، وفي كلّ مرَّة كانت علاقتنا تتوطَّد وتزداد عمقاً وثقة، بحيث كنَّا، بالإضافة إلى العلاقة الطبيَّة، والاستشارة الاعتياديَّة، نتبادل أطراف الأحاديث الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والفكريَّة، وكنت أشعر بسعادة وفرح بسبب أحاديثه التي كانت تنبض بالحبِّ والإيمان والصِّدق... تطوَّرت زيارات «الباشا»، بحيث صار يأتي مصطحباً في كلِّ مرَّةٍ أحداً من أفراد عائلته إذا كان هناك سبب مرضيٌّ يستدعي الاستشارة الطبيَّة، فتارة كان يأتي مصطحباً زوجته التي كانت هادئة جدّاً، ومحترمة جدّاً، والتي كان وجودها يضفي على المكان هيبة ووقاراً، ممَّا جعلني أدعوها بالسَّيدة الجليلة...

وتـارة أخرى كان يصطحب إحدى بناته، اللواتي كنَّ كوالدتهنَّ محترمات ورصينات وهادئات، وكأبيهنَّ قريبات، لا

يشعر الإنسان بأيِّ بُعدٍ، أو حرجٍ في محادثتهنَّ، أو التَّواصل الفكريِّ، أو الاجتماعيِّ معهنَّ. عرفت العائلة كلَّها، ولكنَّ سؤالاً غريباً كان يراودني، وجعلني أنتظر زيارته لأعرف الإجابة، إذ إنَّه لم يصطحب معه يوماً من الأيَّام ابناً ذكراً، بل كان يصطحب زوجته، وبناته فقط... ولم يطل الوقت حتَّى عرفت منه الجواب، فلقد كان له ابنان ذكران، ولكنَّهما كانا مسافرين يعملان في الخارج، وكانا يتعهَّدان العائلة كلَّها من الناحية الماليَّة...

وفي ظهيرة أحد الأيام، أتاني مستعجلاً، ومضطرباً يطلب منِّي أن أذهب معه إلى منزله، لأنَّ زوجته كانت مريضة جدّاً، وكان يصعب عليها القيام لزيارتي في عيادتي، فوافقت بسرعة وبدون تردّد، ورافقته إلى منزله الَّذي دخلته آنئذٍ لأولِّ مرَّة، فأذهلني، وسرق منِّي انتباهي. فلقد كان منزلاً حجريّاً، قديماً مبنيّاً بطريقة رائعة، تلفت النظر، لأنَّ كلَّ حجرٍ كان منحوتاً ومصقولاً وموضوعاً في مكانه المناسب والمتناسق بشكل جميل ورائع...

عاينت السَّيدة الجليلة، وأردت الخروج لأعود إلى عيادتي، فاستبقاني بإصرارٍ وإلحاحٍ لأتناول عنده فنجان قهوة،

فقبلت شاكراً له، وجلسنا في صالونه جميعاً وشربنا القهوة، وغـادرت بعد ذلك، ولكنَّ صورة البيت بقيت منحوتة في ذاكرتي، ولا أبالغ إذ أقول، أنَّها ما زالت حتّى اليوم ماثلة، برَّاقة لا تغادر مخيَّلتي أبداً، ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقة بيني وبين تلك العائلة تتَّخذ منحًى آخر، وبعداً أوسع، وآفاقاً يا ليتها لم تكن... فلقد شاءت الأقدار أن أعيش حالة من المحبَّة المبنيَّة على الاحترام المطلق، والثقة المطلقة، مع عائلة كاملة بجناحيها، المقيم والمهاجر، تحوَّلت لتصبح نبضاً يوميّاً لا ينقطع، تعدَّت العلاقة الطبيَّة لتتحوَّل إلى علاقة اجتماعيَّة وطيدة فكأننا عائلة واحدة متماسكة مترابطة... تلك الحالة كانت أحداثَ قصَّتي الَّتي أردت من خلالها أن أضع إصبعي على جروح كثيرة، وأن أدلَّ على هفوات كثيرة، نرتكبها جميعاً في حياتنا اليوميَّة، ونمضي وتمضي وكأنَّ شيئاً لم يكن... إلَّا إذا لعب القدر لعبته مع غياب الأنظمة والقوانين واستنسابيَّتها، فإنها تؤدِّي إلى ما وصلت إليه هذه القصَّة الَّتي تركت في نفسي آثاراً لن يمحوها الزمن من ذاكرتي ما حييت...

سارية

بعد «الباشا»، والسَّيدة الجليلة، وبعد زياراتهما المتكرِّرة لي كطبيب، وبعد استدعاءاتي أيضاً المتكرِّرة إلى منزلهما الَّذي سرق انتباهي واسترعى كلَّ اهتمامي، كانت الزِّيارة الأولى لتلك الصبيَّة الجميلة، الهادئة، الرَّصينة، المتَّزنة، المحترمة، التي تحسن التَّصرف تماماً كأبويها، وتُحسن الكلام والسَّلام... وتتمتع بذوق رفيع كذوق والدتها الجليلة... نعم لقد عرفتها إنَّها ابنة الباشا ولم تكن عيناي قد رأتاها من قبل، فهي ابنة أبويها بكل ما في الكلمة من معنًى... عرفتها في تلك الزيارة... وتأكدت معرفتي بها مرَّة تلو مرةٍ، فلقد كانت تأتي إمَّا لسببٍ يخصُّها، وإما يخصُّ إحدى أخواتها، وذلك لسبب وحيد، وبسيط، وهو أنَّها الوحيدة بين أخواتها التي كانت تمتلك سيَّارة، وكان من الطَّبيعي، أن تفعل ذلك عندما تستدعي الضَّرورة... خصوصاً وهي الخلوقة، المهذَّبة وعالية الإحساس، والتَّعلُّق

بأخواتها وأبويها... ولقد تأكَّدتُّ منهنَّ جميعاً عبر التَّواصل المستمرِّ، إنَّهنَّ بنات عائلة رائعة التَّربية والأخلاق.

كانت زيارات سارية وأخواتها المتكرِّرة عاملاً إيجابيّاً، أضفى على علاقتي بالباشا البعد الإنسانيَّ الَّذي تحوَّل بمرور الأيام إلى حالة من الثِّقة، كما ذكرت سابقاً، لم يكن من السَّهل الوصول إليها لولا مشيئة الأقدار، التي جمعتني بهم كعائلة...

لا أدري لماذا تطورت الثِّقة بتلك العائلة بشكل كبير، وما زلت أسأل نفسي حتَّى اليوم، ولا أجد جواباً... تخطَّت العلاقة بيننا حدود الأصدقاء العاديين... فلقد وصل الأمر بسارية أنَّها جاءت ذات يوم لتخبرني أنَّها تحبُّ شخصاً، وأنهما على وشك الخطبة... وراحت تحدثني عنه، وعن مزاياه، وخصاله، وشخصيته، وعن إعجابها به، وحبِّها له، وكأنني أحد أفراد عائلتها أو موضع ثقتها المطلقة... واستطردت تقول: سأجيء معه لزيارتك... وسأعرفك إليه... إنَّه رائع... ألا تريد أن تعرفه؟؟ وأنت طبيب العائلة؟؟... لا لا... بل أنت من العائلة... إن لم يكن لديك مانع... فأجبتها بفرح شديد: يشرِّفني ويسعدني ذلك... استأذنت وانصرفت كعادتها بهدوء... وبقيت

أنا ولا أنكر أنَّني شعرت بفرح فريد في نوعه لم أعرفه من قبل البتَّة...

مضت أيَّام قليلة، وحديث سارية يراودني وأنا وحيدٌ في عيادتي المتواضعة، أنتظر أحداً وفق برنامج عملي... وإذا بسارية تدخل عليَّ برفقة شابٍّ، جميل، أنيق، طويل القامة، أشقر الشعر، أزرق العينين، وكأنَّه ليس من بلادنا، تعلو وجهه ابتسامة جميلة... دخلت لتعرِّفني إليه... قائلة إنَّه: مهنَّد... خطيبي... هل أعجبك ذوقي؟؟ كانت تتحدث، وكنت أرى السَّعادة في عينيها وعينيه، كانا مسرورين جـدّاً إلى حدٍّ اللَّاوصف واللَّامعقول... وكانا جميلين أيضاً إلى حدٍّ اللَّاوصف واللَّامعقول... جلسا، وتبادلنا أطراف الحديث، وتناولنا القهوة معاً، وانصرفا، ولكنَّ أجواء السعادة، والفرح، والأمل بقيت خلفهما تملأ المكان... لقد فرحت لفرح روحين في عمر الشَّباب يعرفان الحب، وتمنيت لهما من كلٍّ أعماقي الخير والسَّعادة والفرح الدَّائم... وكأيٍّ خاطبين... انشغلا بحبِّهما، فغابا عنِّي مدَّة زمنية، حسبتها طويلة وذلك بسبب ارتباطي الوثيق بالعائلة، ولكنها ضمن العلاقات الاعتياديَّة، كانت مدَّة طبيعيَّة... فراودتني أفكار عديدة، ولا أدري لماذا

انتباني الخوف عليهما... ولم أجرؤ على أن أتَّصل بهما أو بأيٍّ أحد من ذويهما، خصوصاً وفي تلك الفترة كانت منطقتنا قد وصل إليها الهاتف الأرضيّ، وصار الاتِّصال سهلاً بين الأصدقاء... لكنَّني أحجمت عن ذلك ولا أدري لماذا، بل لعلّه خوف من خبر سيِّيء كنت أخشى حدوثه... التزمت الصَّمت، وآثرت الانتظار، الَّذي لم تطل مدَّته طويلاً... فلقد جاءت سارية في صبيحة أحد الأيام وأخبرتني أنهما انفصلا... أخبرتني، وتبدو عليها غصَّة واضحة في القلب، ودمعة في العين، لم تستطع إخفاءها... ولمَّا سألتها عن السَّبب: وضعت يدها على عينيها وانصرفت دون أن تجيب...

حزنتُ وتمنَّيتُ لو ألتقي مهنَّداً لأعرف منه السبب، أو لأكون عامل خير فأجمع قلبين عاشقين منكسرين... أجل، لقد رحت أتحَّين الفرص لأفعل ذلك... فتارة كنت أتوقَّع ملاقاته صدفة في عطلة نهاية الأسبوع... وتارة كنت أتوقَّع أن أراه داخلاً عليَّ فجأة كما دخل مع سارية أوَّل مرَّة... فكنت أتخيَّل ذلك، وأتخيَّل أيضاً ماذا عساي أن أقول له، أو أن أحدِّثه، وكيف لي أن أتدخَّل في أمر يخصُّه؟؟.

لكنَّني ويا للأسف لم ألتقِ به أبداً، ولم يأتِ إليَّ البتَّة..

فازداد همي... وازداد تفكيري... وراحت تأخذني عذابات التَّألُّم على الَّذين أحبُّهم... فأنا الَّذي يتمنَّى لهم السعادة والفرح بصدق ومحبة...

صحيح أنَّني تألمت... ولكنَّني كنت وما زلت حتَّى اليوم أحترم كثيراً قرارات الآخرين وخياراتهم... فلقد أردت الاستسلام لواقع الحال... ويا ليت ذاك الحال استمر فقد كان ألمه أقلَّ بملايين المرَّات ممَّا آلت إليه الأمور بعد أن عادت المياه إلى مجاريها...

نعم... فلقد تصالحا... وعاد نبض الحبِّ والعشق يجري في عروقهما من جديد... وعمَّ الخبر السَّعيد... وجاءا إليَّ معاً وعلى وجهيهما علامات الرِّضى والفرح، معلنة خبراً جديداً، بعد ليلٍ من الاختلاف والخلاف والأسى والحزن والدموع والقلق...

أسعدتني رجعتهما... وأفرحتني فرحتهما، فهنَّأتهما وتمنَّيت لهما دوام الاتِّفاق والوفاق إلى نهاية العمر... تحدَّثنا، وضحكنا، وانصرفا بعد أن أثلجا صدري... فلقد كانا جزءاً منِّي... وكل ما يهمُّهما يهمُّني فعلاً وصدقاً...

الزواج

بعد مدَّة من الزَّمن، لم تكن بطويلة، تزوج العروسان وسط طقوس دينية جميلة، وسط الأقارب والعائلتين... كان يوم العرس يوماً جميلاً مشرقاً، مفعماً بالدِّفء وأطياب الزُّهور، وزقزقات العصافير... كان وكأنما الدنيا تشهد على ذلك الزَّواج الَّذي جمع قلبين عاشقين حتَّى الثمالة...

تمنيت لهما من كلِّ قلبي زواجاً أبديّاً، وفرحاً دائماً، وسعادة لا تفارقهما... وتمنَّيت كما كلِّ المشرقيِّين أن ينجبا البنات والبنين، وأن يعيشا بأمن وسلام... بعد الزَّواج، كثرت الحالات المرضيَّة في ذلك البيت الغالي على قلبي... وكثرت استدعاءاتهم لي في النَّهار، وفي اللَّيل، للوقوف على علاج تلك الحالات الَّتي تكاثرت، وتكرَّرت تكراراً متشابهاً... فكانت لافتة للنَّظر، وفي معظمها كانت قائمة على التَّوتُّرات النفسيَّة والعصبيَّة، مترافقة مع خوفٍ دائمٍ غير مبرَّرٍ، وأكاد أقول مع حالة

من الهلع عند الجميع، فلقد كانوا يستدعونني عدة مرات في اليوم الواحد نهاراً، أو عدة مرات ليلاً، لأسباب سخيفة في معظم الأحيان، وبدون مبرِّر فعليٍّ في أحيان أخرى... وأكثر ما كان يحرجني في الموضوع، هو سخاؤهم الكبير والدَّائم، فلقد كانوا يدفعون بسخاءٍ، ربما لأنهم أعزَّاء النفس وعلى جانب كبير من احترام الـذَّات واحترام الآخـر، أو ربما لعدم إحراجي باستدعاءاتهم ولجعلي أتقبَّل الفكرة بدون تردُّد...؟؟ ولكنَّ في وقت ما كنت في حالٍ من عدم الرِّضى، لأنني لم أجد تفسيراً لتلك الحالة الَّتي ألمَّت بتلك العائلة التي أحبُّها...

فالاضطراب الَّذي كنت أراه على وجوههم والمترافق مع ذلك الخوف الكبير في معظم الأمور، والَّذي لم يكن له أي تفسير، كان يقلقني ويقضُّ مضجعي...

الخبـر السَّارُّ

بعد وقت من ذلك التوتُّر والاضطراب، انتشر الخبر السَّارُّ، وهو أنَّ سارية ومهنَّداً ينتظران وليداً، ففرح الجميع بالخبر... وزال التَّوتر السَّائد بسحر ساحر، وتحول كلُّ الاهتمام إلى سارية، فبانت الفرحة على كلِّ الوجوه، ولكنَّ الاهتمام الزائد بحَمْلِ سارية، والخوف الزائد على الحَمْلِ كان أيضاً لافتاً جدّاً، ولكنَّهُ كان مقبولاً بالمقارنة بما كان سائداً من توتُّر سابق... فالآن هناك ما يستحقُّ، أمَّا في السَّابق، فلم يكن من سبب لذلك...

كنت أكاد أرى الفرحة على الجدران، وعلى الأثاث، وعلى كلِّ ركنٍ من أركان البيت الجميل...

كان مهنَّد يطير من الفرح... وكان يُحسن معاملة سارية إلى أقصى الحدود... كان يندفع بكل حبِّه وطاقته ليقدِّم لها خدمة، وليعبِّر لها عن حبِّه الأبديِّ، واحترامه لها كونها زوجته، وكونها

حاملاً بوليد سيكون حلمه وأمله... ويا ترى أذكراً سيكون؟؟ أم أنثى؟؟ وماذا سيكون اسمه إن كان ذكراً؟؟ وماذا سيكون اسمها إن كانت أنثى؟؟ يسأل نفسه مهنَّد، وهو يتقرَّب من زوجته...

ويسأل الجميع ويسأل عن الأسماء، ويستطلع الآراء، فلقد كان في ذروة النَّشوة، ومنتهى السَّعادة والأمل... انقضت أشهر الحمل التِّسعة... لتبصر النُّور طفلة جميلة، تشبه أمَّها بشكل كبير جدّاً... فعمَّت البهجة، وتوافد المهنئون لتقديم الأمنيات والهدايا... واستمر ذلك مدة طويلة، جميلة، حافلة بالفرح... بعد مشاروات طويلة، وأخذ وردٍّ، اتفق الجميع على أن يسمُّوا الطِّفلة: «فرح» لأنها كانت تمثِّل فرحهم وتشكِّل لهم الأمنية الجميلة... فلقد أصبحت «فرح» ومنذ لحظة ولادتها شغل العائلة الشَّاغل، ومركز الاهتمام الأوَّل، الَّذي تصاعد بشكل جنونيٍّ عند الجميع...

فلقد كانت سارية وزوجها يقيمان مع عائلتها في ذلك البيت الحجري الجميل... مما جعل الجميع يتسابقون سباقاً محموماً للاهتمام «بفرح»... كانت إذا بكت كأيِّ طفل في العالم، يُجنُّ جنونهم، وإذا استفاقت من نومها ليلاً، يستفيق الجميع... أمَّا إذا ارتفعت حرارتها، فكنت ترى على وجوههم

خوفاً غريباً عجيباً... كلُّ شيء كان يشكِّل عندهم تساؤلات وخوفاً واضطراباً... علماً بأنَّ للعائلة أحفاداً آخرين... ولكنَّهم لم يكونوا يقيمون معاً في المنزل نفسه، بل كانوا بعيدين عن العائلة الأساسيّة، لذلك شكلت «فرح» مكاناً، وعنواناً، وشخصاً مهمَّاً، ومحطَّة للاهتمام الغريب العجيب...

كان ينتابني شعور سيِّىء كلَّما كنت ألاحظ ذلك الاهتمام المَرَضيَّ بتلك الصَّغيرة الجميلة... ولكنَّني كنت أتجاوز الخوف حبَّاً بتلك العائلة، واحتراماً لها، وتقديراً لتلك العلاقة الرَّائعة الَّتي كانت تربطني بهم... ثمَّة إحساساً كان يعتمل في صدري، ولم أكن قادراً على إخماده... بل كان كالنار ينهش صدري، وهو أنَّ أمراً ما سيحدث نتيجة لذلك الاهتمام الغريب وهو أمر أتمنَّى أن يكون غير مكروه...

الرَّحيل

عرفتهم فرداً فرداً... وخبرتهم فرداً فرداً... كانوا قمَّة في الأخلاق وحُسْنِ التَّربية... كانوا مؤمنين حقاً... وبعيدين كلَّ البعد عن التَّعصُّب والتَّشنُّج... كنت إذا دخلت منزلهم، وجدت في كلّ زاوية مَعْلَماً دينيّاً يدلُّ على تعلُّقٍ كبير بالله الخالق، وبالقدِّيسين كلِّهم...

كانوا يحافظون على طقوسهم الدينيّة بانتظام، ويبتعدون كلَّ البعد عن أيَّة معصية، وعن كلّ مسلكيَّة سيِّئة... كان يزعجهم حتَّى التَّحدُّث بصوت مرتفع... وتؤذيهم أصوات الجيران عندما يتشاجرون... وتوتِّرهم الكلمات البذيئة إذا تناهت إلى أسماعهم من تلك الشجارات، فتجعلهم بحالة سيئة جدّاً...

والسَّيِّء في الأمر، أنَّ منزلهم الجميل كان يقع في حيٍّ مكتظ بالسُّكان، وكثيف البيوت، من حيث قربها بعضها من بعض... وكانت مشاجرات ومشاحنات الجيران تتكاثر

باستمرار، وكانت تؤذيهم باستمرار... تؤذي طباعهم المؤمنة، الهادئة... الوادعة... ممَّا دفعهم إلى اتِّخاذ القرار الصَّعب، قرار الرَّحيل عن ذلك المنزل، الرَّائع، المليء بالأصالة، والجمال، والحميميَّة، وعبق الإيمان المتأتِّي من كلٍّ زاوية من زواياه، حيث توجد لوحات الصلوات، وتماثيل القدِّيسين والبخور وما إلى ذلك...

أجل لقد قرَّروا الرَّحيل... إلى حيث تهدأ النفوس... ولا يسمع أحدٌ الأصـوات الناشزة... غـادروا منزلهم الفسيح، ليسكنوا في شقَّة في بناية كبيرة، ولكنَّ بعيداً عن بيتهم... لمَّا عرفت بالأمر، قمت بزيارتهم واستغربت الأمر كثيراً، ولكنَّني لا يحقُّ لي أبداً أن أتدخَّل في شؤون الآخرين، وخصوصاً إن كنت أحبُّهم، ومن هذا القبيل تمنيت لهم إقامة جميلة في شقَّتهم الجديدة، وسألت «الباشا» همساً: لماذا فعلتم هكذا؟؟ فأجابني: طلباً للهدوء يا صديقي...

إلَّا أنَّ أمراً لفت انتباهي، واسترعى اهتمامي، واستدركت حينها أنه ربَّما كان هنالك سبب آخر للرَّحيل، ولكنَّه لم يكن معلناً... فإنَّني في زيارتي لم أرَ سارية، ولا مهنَّد، ولا فرح، في تلك الشِّقة... فسألت عنهم كصديق للعائلة، وأحببت أن أطمئنَّ

إليهما... فكان الجواب: أنَّهم في الشِّقَّة المجاورة... فلقد استأجرا شقة لهما أيضاً ليقيما فيها مع ابنتهما، وهكذا يكون المجال أوسع، والأمر أفضل... شربت القهوة... وغادرت المكان، ولكنَّ إحساساً سيِّئاً بدأ ينتابني منذ تلك اللحظة... لم أصـرِّح عنه حينها ولكنَّني الآن وبقلمي أصـرِّح عنه وبكلِّ صدق... لقد كان إحساساً سيِّئاً... وربما في مكان ما اعتبرته سبباً غير معلن للرَّحيل من البيت القديم... استمرت علاقتي بكلِّ العائلة بشقتيها الجديدتين على ما يرام، حتَّى بدأت تتلاشى من داخلي كلُّ الأحاسيس السيئة، وكانت الأمور تبدو في نصابها... فحمدت الله على أنَّ كلَّ شيء يبدو جميلاً وأنَّ السَّعادة ترتسم على وجوه الجميع... وقد علمت أنَّ سارية ومهنَّداً شرعا في بناء منزلهما الخاص... فأسعدني الأمر، وهو حلم كلِّ ثنائي يسعى ليحيا بسلام ووئام... فكنت أسأل دائماً عن مراحل البناء، وكنت أشعر بسعادة تغمرني وأنا أراهما يمضيان في الحياة معاً مع فرحهما وثمرة زواجهما، أعني بها: طفلتهما: فرح...

الغيوم السوداء

في تلك الأجـواء الجميلة، والسَّماء الصَّافية، والأفق الرَّحب للحياة، بدأت تتشكَّل بعض الغيوم البعيدة، والَّتي بمجرَّد أن ظهرت، أعادت إلى داخلي تلك الأحاسيس السَّيئة الَّتي كانت تراودني من حين إلى آخر... فلقد بدأتُ أتحسَّس بقلب الصَّديق المخلص، المحبِّ، وجود مشكلة ما، غير اعتياديَّة، في ذلك البيت، وفي تلك العائلة... أصابني الفضول... فأحببت أن أعرف المشكلة من باب المهتمِّ بالأمر، والباحث عن حلٍّ إذا تمكَّن من ذلك... ففهمت بصعوبة أنَّ خلافاً واختلافاً بين عائلة سارية وعائلة مهنَّد، قد بدأ يكبر ويظهر إلى العلن رغم أنَّ الجميع كان يحاول إخفاءه... لم أدرِ ما هي الأسباب الفعليَّة، والحقيقيَّة التي أشعلت الخلاف... وإنَّما فهمت بأنَّ الأمر متعلِّق ببناء البيت الحلم الَّذي كانا قد شرعا في بنائه...

خفت كثيراً من ذلك الخلاف... وازداد خوفي عندما لم أعد أرى مهنَّداً في البيت، ولا في أيَّة زيارة كنت أقوم بها لتلك العائلة... عندها أدركت أنَّ الأمر كبيرٌ جدّاً، بل خطير جدّاً... بل متفاقم جدّاً... صرت أخجل من التَّدخل في شؤون العائلة... ولكنَّني كنت أرى أنَّ المشكلة اتخذت منحًى سيئاً جدّاً... فصرت أحاول أن أهدِّىء نفوسهم، وأن أخفِّف انفعالاتهم... فكانوا يظهرون لي تجاوباً... ولكنِّني كنت أدرك أنَّه غير صحيح وغير أكيد... ممَّا كان يجعلني أزداد خوفاً في كلِّ مرَّة تتلو سابقتها...

لم أستطع أن أفهم كيف أنَّ مهنَّداً استطاع أن يغادر البيت الَّذي توجد فيه طفلته وحلم حياته... «فرح»... التَّي كانت هاجسه، وشاغله... والَّتي شغلني بها حتَّى أرهقني...؟؟ كيف استطاع أن ينام بعيداً عن أنفاسها وصوتها ورائحتها؟؟ لم أدر كم كان كبيراً حجم تلك المعضلة التي تفصل قلب أبٍ عن زوجته وعن فلذة كبده، ليبتعد، وليعاند، وليشاكس وليقسو؟؟...

بعد رحيله... انقطع مهنَّد عنِّي نهائياً، وبشكل كامل ولافت

للنَّظر، وأنا الَّذي اعتبرته من أقرب المقربين... بل كان له في قلبي وقرارة نفسي حبٌّ حقيقيٌّ، واحترام كبير، ومكانة لا تهتزُّ...

لم أجد لذلك إلَّا تفسيراً واحداً... وهو أنه اعتبرني صديق عائلة زوجته... فعمَّم عليَّ خلافه واختلافه معهم... أزعجني الأمر كثيراً... وكنت أحبُّ أن أراه، وأن أسمعه، وأن أفهم منه رأيه في الخلاف... فأنا ويا للأسف لم أسمع إلَّا رأي فريق واحد... ولكنَّني لم أنجح... وظلَّ مهنَّد بعيداً... لم يمنعني الأمر من المضيِّ في إضمار النيات الحسنة... فعملت بصدق على رأب الصَّدع، الَّذي فهمت فيما بعد أنَّه كان أكبر وأوسع من قدرتي على الفعل، فآلمني الأمر، لأنني كنت أشعر بالفشل في كلِّ مرَّة كنت أحاول أن أفعل شيئاً، أو أن أقول شيئاً... وخصوصاً أن مهنَّداً كان بعيداً، وأن عائلة الباشا كانت على درجة من التَّوتُّر النفسي، والتَّشنج الَّذي كان يمنعني من التقدم ولو قيد أنملة...

لم يمضِ زمن طويل حتَّى علمت أنَّ الفريقين قد احتكما إلى المحكمة الروحيَّة وطلبا الطلاق... لتبدأ مرحلة جديدة من النزاع الَّذي لم أتمنَّ حصوله يوماً... نعم لقد بدأ النِّزاع القضائيُّ في المحكمة الروحيَّة، وبدأ هناك الأخذ والرَّدُّ الَّذي لم يكن منه

طائل ولا نفع، وإنَّما اجتهادات محامين، أراد كلّ محام أن يُظهر فيها قدراته الحقوقيَّة، وأن يثبت جدارته، وأن يتفوَّق في النِّهاية... لم أكن أعرف من هم المحامون... بل كنت في موقع لا أُحْسَدُ عليه... وجدت نفسي بعيداً بعض الشَّيء عن عائلة «الباشا»... واقتصرت كلُّ اتصالاتهم بي في هذه المرحلة على الناحية الصِّحيَّة فقط... فقد بدأت العلاقات الاجتماعيَّة المميَّزة التي كانت تربطني بتلك العائلة تصاب بشيء من الفتور...

لم يكن باليد حيلة، إلَّا سلاح المحبَّة الَّذي تسلَّحت به دائماً وفي كلّ الظُّروف والأوقات... حافظت عليه وأردت دائماً أن أنجح به... لكن القضيَّة كانت كما بدا لي في سياقها الأخير، كبيرة، ومعقَّدة جدّاً... فالزَّوجان كانا من مذهبين مختلفين وفي بلادنا، يكون القيد على خانة الـزَّوج... فكانت القضية في المحكمة الرَّوحية التَّابعة لمذهب الزَّوج، فكان هناك شرخ مبدئيٌ وأســاسيٌّ، معتبر عند عائلة الباشا من هذا المنطلق، واستعداد مسبق لرفض أيِّ أمر يصدر عن المحكمة انطلاقاً من هذا الاختلاف، وهذا ما زاد الطِّين بلَّة...

كانت تنتابني الهواجس دائماً، والوساوس تأكلني... صرت أتخيل النَّتائج الَّتي يمكن أن تؤول إليها تلك القضية التي

بدأت حبّاً جارفاً جميلاً، وانتهت عداءً مستحيلاً... كنت أفكِّر دائماً في الطِّفلة فرح، التي كانت في ذلك الوقت لا تتجاوز السنتين إلَّا قليلاً... كنت أفكِّر في أمرها وكيف ستعيش مع أمِّها دون أبيها، أو مع أبيها دون أمِّها... كنت لا أتخيَّل وما زلت حتَّى الآن لا أتخيَّل كيف يمكن لأبوين أن ينفصلا ليتركا طفلاً أو طفلة في مهبِّ الرِّيح؟؟...

لم أتخيل ولم أكن لأتخيل، كيف يمكننا أن نتجاوز إنسانيتنا، ونترك الأمر لنصوص مكتوبة حيناً، ولأعراف غير مكتوبة حيناً لتحدِّد مصير طفل أو طفلة لا حول لها ولا قوَّة...؟؟

كنت أدعو الله في كلِّ صباح وفي كلِّ مساء أن يتلطَّف بأمور ذلك الثُّنائيِّ الَّذي أحببته من قلبي وبكلِّ صدق، وأن يرأف بأقدارهما، وأن يعيدهما إلى جادة الصَّواب مع الطِّفلة البريئة ليكملا مسيرة الحياة الجميلة التي يجب أن نعيشها كما ينبغي...

وفي صبيحة أحد الأيام وبينما كنت في عيادتي، دخل عليَّ صديقي العزيز جـدّاً، والغالي على نفسي، والَّـذي له عندي احترام كبير، المحامي جورج زيتونة، الَّذي تجمعني به علاقة راقية، فريدة، ونادرة، قائمة على الاحترام والمحبة والتقدير...

أسعدني حضوره ويسعدني حضوره دائماً... جلسنا نتناول أطراف الحديث، ونشرب القهوة، ونقرأ بعض الشعر، فهو شاعر، رقيق، مرهف الإحساس، رائع الكلمات... وإذ بالهاتف يرنُّ وينغصُّ علينا هدوء المكان... أجبتُ! فإذا بالباشا يطلب منِّي موافاته إلى بيته لأمر ضروري... أخبرت صديقي المحامي بأنني ذاهب إلى بيت فلان، لأمرٍ ضروري، ففاجأني جدّاً بأنه هو محامي العائلة في كثير من القضايا، وفي قضية سارية ومهنَّد أيضاً، وأبدى رغبته في مرافقتي لزيارتهم للاطَّلاع على ما يجري، وعلى آخر المستجدَّات... أبهجني ذلـك... لأنَّ لصديقي المحامي مكانته الكبيرة... ووجوده معي، يعني لي الكثير...

انطلقنا... ورحنا نتحدث ونحن في السَّيارة بشأن تلك العائلة... بشأن أولئك النَّاس الَّذين نحبُّهم... بشأن سارية ومهنَّد... وبشأن فرح... تحدَّثنا، وتشاورنا في كيفية إنهاء ذلك الصِّراع... وتساءلنا عن إمكانية التَّصالح والمصالحة... إلَّا أنَّه كان متشائماً... ولم يكن يرى أيَّة إمكانية لذلك... استغربت تشاؤمه...!! وسألته لماذا يا صديقي؟؟ فأجاب بتنهيدة كبيرة: يا دكتور، القوانين هنا ليست فعلية، بل في معظم الأحيان

استنسابية... وأيَّة قوانين يا دكتور يمكنها أن تمحو خلافات كهذه؟؟ قل لي يا دكتور: أي حكم من الأحكام يمكنه أن يعدل بين قلب أب وقلب أم، وطفلة بحاجة إليهما... وهما لا يلتقيان؟؟!!!...

لم أُجِبْ... بل خيَّم الصَّمت علينا... حتَّى وصلنا إلى بيت أصدقائنا المشتركين... ولمَّا دخلنا عليهم، وجدنا وجوههم صفراء، خائفة، وقلوبهم تخفق مضطربة، وكـأنَّ الجميع سكارى، وما هم بسكارى، ولكنَّ خطباً جَلَلاً أصابهم، وألقى بغيومه السوداء عليهم، فبدى الجميع بحالةٍ مزرية يرثى لها...

كان الباشا يمشي ذهاباً وإياباً في صالون البيت، يتمتم ويردِّد كلمة واحدة: كفى، كفى، كفى... وهو غاضب، متجهِّم الوجه، مقطّب الجبين... حاولنا تهدئته مطوَّلاً حتَّى نجحنا، وقبل أن يجلس على كرسيٍّ، ليشرب القهوة، وبيده سيجارته الَّتي كاد يأكلها أكلاً... بعد وقت استطعت أنْ أفهم أنَّ سارية مصابة بنوبة عصبية، وتكاد تختنق من ضيق التَّنفُّس، لأنَّ رجال الأمن أخبروها أنهم قادمون ليأخذوا الطِّفلة فرح إلى أبيها... قمت بفحصها وأعطيتها مهدِّئاً... وانهالت الأسئلة من الجميع: كيف يمكن لرجل أمن أن يأتي ليأخذ بين يديه طفلة في الثانية

من عمرها؟؟ وكيف يمكن لأمٍّ أن تعطي طفلتها هكذا؟؟ وماذا سيحلُّ بالطِّفلة؟؟ وماذا سيحلُّ بالأمِّ؟؟ بل ماذا سيحل بالجميع؟؟ لماذا لا يأتي أبوها إليها ليراها؟؟ أهكذا تكون المحكمة؟؟ أهكذا تكون القوانين؟؟ أهكذا تكون العدالة؟؟... ثم نظر الباشا إلى المحامي قائلاً: إفعل شيئاً يا أستاذ... ألست أنت المحامي؟؟.

كان المحامي هادئاً جدّاً، وفطناً جدّاً، ومنتبهاً لكل كلمة تقال ولكل كلمة قالها أحد هناك... فقال: قلت قبل قليل يا باشا: «فليأتِ أبوها، أي أبو الطِّفلة إليها» صحيح... فأجاب الباشا: نعم صحيح... قال المحامي: إذاً فلنعمل على هذا الأساس، وهذا الأساس هو أساس المصالحة، أأنت جاهز يا باشا؟؟ هنا صمت الباشا قليلاً... ثم قال: نعم جاهز... فابتسم الجميع وانفرجت أساريرنا... وانصرفنا بعد أن كتبت تقريراً بما رأيته من أثر في حالة سارية الصحيَّة، بناءً على رأي المحامي، وطلب الأهل، على أمل أن يقوم الأستاذ المحامي بمساعيه، من أجل إعادة النظر في حيثية الحكم، وحيثية اللِّقاء بين الأب والطِّفلة، لعلَّ الأمر يكون مدخلاً للمصالحة...

عدنا إلى بيوتنا بعد أن افترقنا على أمل فعل الخير،

للوصول إلى الخير، وإلى بلسمة القلوب المنكسرة، ودمل الجراح النازفة، ولملمة الطفولة المعرَّضة للتَّشرُّد... وكلُّنا أمل بالله وبالنجاح... أوفى المحامي بوعده، واستطاع أن يغيِّر من حيثيات الأمور، فكان الحكم أن تبقى فرح مع والدتها، على أن يراها أبوها مهنَّد كلَّ نهاية أسبوع يوماً كاملاً في بيته... وهكذا جرت الأمور، وتخيلنا جميعاً أن هذا الإخراج هو الأهون بين الشرور، والأقلُّ ضرراً، والأكثر حضارة... فكانت سارية تأخذ فرح بسيارتها إلى مهنَّد كلّ نهاية أسبوع صباحاً، وتعود بها مساءً إلى بيتها، وكادت الأمور تكون رائعة أو في طريقها إلى إعادة جمع شمل العائلة الجميلة لولا أنَّ أمراً خطيراً حدث، فأنهى كلَّ احتمال للخير في زمن كنَّا نعيش أوَّل تداعيات اغتيال رئيس وزراء لبنان «رفيق الحريري»، الأمنيَّة والسياسيَّة والنفسيَّة والاجتماعيَّة... فكانت كلُّ ساعة تمضي تترك خلفها جبلاً ضخماً من الانفعالات والتَّفاعلات والاهتزازات الهائلة، مما أنتج فوضى هائلة... واضطراباً هائلاً عشناه وما زلنا نعيش تداعياته حتَّى الآن، ولا أدري أين ستقف كرات ثلجه الهائلة ولهيب نيرانه الحارقة...

الجريمة

كان عام ٢٠٠٥، عاماً مشؤوماً، بكل ما في الكلمة من معنًى، حمل معه حادثة العصر، تلك الَّتي خطَّط لها أعداء الوطن الصَّهاينة بإتقان ودقَّة متناهية... حادثة اغتيال رئيس وزراء لبنان السَّابق رفيق الحريري، الَّذي كان يمثِّل ثقلاً سياسيَّاً لبنانيّاً، وعربيّاً ودوليّاً، وكان اغتياله يمثِّل أيضاً وقعاً سياسيّاً ضخماً لبنانيّاً وعربيّاً ودوليّاً، أنتج الكثير من التَّداعيات الَّتي ما زالت تتفاعل حتَّى الآن بتحريك من الأصابع الصهيونيَّة، الَّتي أرادت من الاغتيال أن يكون حالة تدميريَّة للوطن، وللواقع العربيِّ، ولحالة الوعي السياسيِّ التي شهدها لبنان، وشهدتها المنطقة العربيَّة في مجال الصراع العربيِّ الإسرائيلي... وعلى كلِّ حال ليس هذا هو موضوع قصَّتنا، وإنَّما استحقَّ ذكره لأنَّه كان هو الحدث الأبرز، والظرف الزمنيّ الَّذي وقعت فيه أحداث القصَّة التي نحن بصدد فصولها...

ذهبت بعد ظهر يوم سبت إلى قريتنا لزيارة الأهل... وكان يوماً ربيعياً جميلاً... جلسنا في الدار تحت شجرة برتقال كبيرة، وقديمة، تنضح برائحة تاريخ له عندي قيمة ومعنًى ومغزىً في الحياة، أدركه وحدي، وأقصده دائماً وحدي، لم أصرِّح به يوماً، وها هي المرَّة الأولى التي أصرِّح بها عنه... جلسنا هناك نتناول أطراف الحديث ظاهراً، وأغوص في بحر الذكريات الخاصة بي باطناً، ونشرب القهوة في جوٍّ عائليٍّ حميم، بين بعض الورود والزنابق والغاردينيا... ليفاجئني أحد أبناء إخوتي بسؤال كان ظاهره طبيعياً واعتيادياً، ولكنَّه بالنِّسبة إليَّ كان صاعقاً... بل أصابني بالذُّهول... قال: هل عرفت شيئاً يا عمي عن الجريمة التي وقعت اللَّيلة الماضية، أي ليلة الجمعة - السبت في جوار حلبا؟؟؟ فأجبته بلهفة: وعن أيَّة جريمة تتحدَّث يا ابن أخي؟؟ فقال: وقعت جريمة اللَّيلة الماضية في جوار حلبا، وكلُّ النَّاس يتحدَّثون عنها اليوم... ألم تسمع بذلك؟؟ قلت: لا والله، فأنا منهمك بأعمالي، ولا وقت لي للقيل والقال... لكن، أخبرني يا ابن أخي، ماذا يقول الناس؟؟ فأجاب: يقولون: إنَّ عائلة بكاملها قد قُتلتْ... ويقولون: إن زوجة أحدهم قد قامت بذلك...!!!

اهتزَّ كياني بعنف شديد عندما سمعت ذلك الخبر، فلا أدري أبداً

لماذا تبادر إلى ذهني مباشرة أن الأمر متعلِّق بالباشا وعائلته، وبمهنَّد وعائلته... أصابني ذعر شديد، وخوف على الَّذين أحبُّهم... ورحت أدعو الله أن لا يكون الموضوع كما تبادر إلى ذهني، وتفكيري... ثم سألت ابن أخي: هل عرفت شيئاً عن أسماء الضَّحايا؟؟ فأجاب بالنَّفي... هدأت قليلاً، ثمَّ اضطربت أكثر فأكثر... وأمسكت بهاتفي لأتَّصل بالباشا لأطمئنَّ إليهم... لكنَّني أحجمت، ولم أفعل، خوفاً من التفسيرات السَّيِّئة... أمضيت بعض الوقت مع إخوتي هناك في القرية، تحت شجرة البرتقال... لكنَّني فقدتُ حينها الشُّعور الجميل الَّذي يتسلَّل إلى داخلي في كلِّ مرَّة أجلس هناك... وقفلت عائداً إلى بيتي، والسُّؤال تلو السؤال، يراود قلبي وفكري... وخوف شديد، هائل، من أن يكون الَّذي جرى متعلِّق بأولئك الَّذين أحبُّهم، والَّذين سكنوا قلبي، وأصبحوا جزءاً من وجداني وحياتي وعاطفتي...

لم أستطع النَّوم في تلك اللَّيلة المشؤومة... فالهواجس تمكَّنت منِّي وتغلغلت في صدري، وأصابتني إصابات قاتلة... وعند الصباح... أي صباح يوم الأحد، وحوالي الساعة الثامنة والنِّصف صباحاً، رنَّ جرس هاتفي... أسرعت ورفعت

السَّمَّاعة، فإذا بالباشا، وبهدوئه المعتاد، يطلب منِّي أن أوافيه إلى منزله للضَّرورة... وأقفل هاتفه... هدأ روعي بعض الشَّيء... وأسرعت إليه، تدفعني محبتي... ولمَّا دخلت عليهم، قرأت على وجوههم اضطراباً عظيماً، وخوفاً رهيباً... لكنهم كانوا يجلسون ويشربون القهوة... متظاهرين بالهدوء، وفي داخلهم حقيقة أخرى... فلقد كانوا مختلفين... لم أعرفهم يوماً هكذا أبـداً... جلست أشرب القهوة معهم، وفي رأسي ألف سؤال وسؤال... وأوَّل ما سألته: خير إن شاء الله يا باشا، لماذا دعوتني في هـذا الوقت المبكر، وفـي يـوم الأحـد؟؟ من المريض؟؟ فأجاب: ألم تسمع بجريمة الأمـس؟؟ فأجبت بالنفي؟؟ وسألت أيَّة جريمة؟؟ فقال: لقد قتل أحدهم مهنَّداً وأخاه، وأمَّه دفعة واحدة... فقلت: أعوذ بالله... ماذا تقول؟؟ ومن الَّذي يجرؤ على هذا الفعل؟! فقال: كيف لي أن أعرف؟! ولكنَّ الَّذي أعرفه أن رجال الأمن دهمونا واعتقلونا وأخذونا الليلة الماضية كي يحقِّقوا معنا، وأوسعونا ضرباً ولكماً، ومن ثم تركونا وشأننا... ولقد استدعيتك من أجل ابنتي هذه، وأشار إليها... فهي تتألم كثيراً بسبب الضَّرب... أرجوك أن تفحصها، وتنظر إلى الرضوض الكثيرة في جسمها، وتعطيها دواءً يخفِّف

عنها الألم... ثم أردف قائلاً: هل يجوز ذلك؟؟... خيّم الصَّمت على المكان بضع دقـائـق... عاينت ابنة الباشا المصابة بالرضوض، ونظرت حولي فلم أجد سارية ولا فرح... فنَظرت إلى الباشا الَّذي كان ينظر دائماً إلى الخارج عبر النافذة وقلت: لكنْ يا باشا، أين سارية وفرح؟؟ إنني لا أراهما... هل هما بخير؟؟.

فأجاب بلغة الواثق بنفسه: الحمد لله أن سارية وابنتها لم تكونا في البيت ليلة الجريمة... إنهما عند صديقة لها في بيروت، ذهبت مع ابنتها لقضاء بضعة أيَّام تروِّح فيها عن نفسها جرَّاء التعب الَّذي تعرَّضت له في الأيام السابقة... فقلت: وهل علمت بالخبر؟؟ فأجاب: لا أدري، ولكنَّ الخبر كبير جدّاً وبالتأكيد ستعلم عاجلاً أو آجلاً...

لم أصدِّق أيَّ كلمة ممَّا قاله الباشا... كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أشعر أو شعرت أنَّ الباشا قد كذب عليَّ في كلّ كلمة وفي كلّ حرف... لكنَّني لم أعلِّق... بل أخذت قلماً ودفتر الوصفات الطبية، لأكتب بعض الأدوية المسكِّنة للفتاة الَّتي جئت من أجلها... ففاجأني الباشا وهو يقول: ماذا تفعل؟؟ بل ماذا تكتب؟؟.

قلت: أكتب دواءً لابنتك... قال: لا تكتب شيئاً... نحن لا يمكننا الخروج من بيتنا... هكذا طلب منَّا رجال الأمن... طلبوا أن نبقى في البيت مهما جرى.. فقلت: لا عليك يا باشا... لا عليك سأذهب أنا وأشتري لابنتك الدَّواء المطلوب من أقرب صيدلية وأعـود إليكم في الحال... شكرني ورافقني إلى الباب... وقال: لا تتأخر يا دكتور... نحن ننتظرك... ربما إذا تأخرت لا تجد أحداً منَّا هنا... نظرت إليه... فوجدت في عينيه دموعاً وعلى جبينه تعرُّقاً غير معهود... خرجت من منزلهم مذهولاً أو مذعوراً... لا أدري أبداً كيف خرجت... بل كلّ الَّذي أعرفه أنَّني كنت أدعو الله أن يكون الأمر بعيداً عن أيدي الباشا وعائلته... انطلقت بسيارتي إلى أقرب صيدليَّة واشتريت لهم الدَّواء المطلوب، وعدت بسرعة كبيرة، لأجد إحدى بناته، وكانت آتية من السفر... تنتظرني عند مدخل البناية، حيث أعطيتها الدواء، وأردت أن أعود أدراجي إلى بيتنا... وإذ بي أسمع صفَّارات سيارات إسعاف وجموعاً من النَّاس يخرجون من بيوتهم إلى جوانب الطريق في وسط تلك القرية، حيث ضاقت الطريق على العابرين وعلى السَّيارات... توقفت عند إحدى الزَّوايا، وسألت أحدهم: خير إن شاء الله، ماذا يجري؟؟

فأجاب بحزن شديد: لقد وصلتْ جثامين الضحايا المغدور بهم على أيدي عائلة فلان... مشيراً إلى عائلة «الباشا»... أصابني الذُّعر والخوف والهلع والغضب فلم أنطق بأيَّة كلمة... كنت أعرف الطّرقات الفرعيَّة في تلك القرية... فسلكت أحدها وعدتُ إلى منزلي وفي قلبي نار تحرق كلَّ إحساسٍ وكلَّ خاطرة وكل فكرة وكلَّ احتمال... جلست في منزلي محتاراً، أيَّ احتمال يمكنني أن أصدِّقه وأيّ احتمالٍ يمكنني أن أكذِّبه... لم أتناول أيَّ طعام، ولا أيَّ شراب... كان ذلك الوقت القصير كأنه دهر كبير... حوالى الساعة الواحدة ظهراً، حاولت الاتصال بعائلة الباشا فرنَّ الهاتف طويلاً ولكنَّ أحداً لم يجب...

فهمت حينها، ما تأكَّدتُ منه بعد ذلك، وهو أنَّ أجهزة الأمن عمدت إلى توقيف جميع أفراد عائلة الباشا دون استثناء، رجالاً ونساءً، للتحقيق في الجريمة... والَّذين أقرُّوا فيما بعد أن ابنهم «عيَّاش» العائد أيضاً من السَّفر هو القاتل، وأنَّه هو وسارية وفرح قد غادروا لبنان عبر ممرٍّ غير شرعيٍّ إلى الأراضي السُّوريَّة ليتواروا عن الأنظار، ظنّاً منهم أنَّ الأمر ينقضي هكذا، وأنَّ المشكلة تمضي على هذا النحو من البساطة...

كان الأمر يستعصي على التَّصديق، والمنطق. فمن عرف

«عياش» من قبل، لا يمكنه أبداً أن يصدِّق ما فعله... كان شابّاً هادئاً، مؤمناً، كجميع أفراد عائلته، وبالإضافة إلى ذلك كان منتجاً وميسوراً، وخلوقاً جدّاً... لكن ويا للأسف فإن الحقيقة كانت أقوى من كلِّ انطباع، فلقد كان هو القاتل فعلاً...

كثرت الأقاويل حول الجريمة، وراح كلٌّ واحد يتخيَّل أحداثاً ويرويها، ويتخيَّل إمكانيَّات واحتمالات ويحكيها وكأنَّها حدثت فعلاً... لكنَّ الأمر لم يدم طويلاً، فبالرُّغم من الوضع الأمنيِّ المستجدِّ بعد اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وبالرُّغم من انسحاب القوات العربيَّة السوريَّة من لبنان تحت تأثير ذلك الاغتيال المشؤوم، بالرغم من ذلك كلِّه، بقي التَّنسيق الأمنيُّ قائماً، فقامت أجهزة الأمن العربيَّة السوريَّة بتعقُّب «عياش» و«سارية» المتواريين عن الأنظار في الأراضي السوريَّة، وألقت القبض عليهما، وقامت بتسليمهما إلى السلطات اللبنانية، لتتخذ القضيَّة مجراها الحقيقي، وليسكت الحكواتيُّون عن الكلام، ولتكتمل الصورة الفعلية للجريمة كما وقعت وكما رواها «عيَّاش» في التحقيقات التي تسرَّبت شيئاً فشيئاً، فجاءت ضمن الإطار التي حدثت فيه، والتي تركت خلفها دموعاً كثيرة ومأساة حقيقية وجريمة لا يمكن أن ينساها قلب إنسان...

وفي التَّفاصيل، أنَّ سارية كانت قد أوصلت طفلتها فرح إلى منزل أبيها صباح يوم الجمعة بمقتضى الحكم القضائي، لتبقى معه طوال النهار، وذهبت مساءً برفقة أخيها عيَّاش لتأخذها وتعيدها إلى البيت، حسب ما جرت عليه العادة مدَّة من الزَّمن... وهناك جرى خلاف، ومشادَّة كلامية بين مهنَّد وسارية داخل بيت مهنَّد، تطوَّر إلى تشابك وصراخ، فما كان من عيَّاش، المؤمن الرَّصين، المتَّزن، إلَّا أن أخذ مسدَّسه من جيبه وأطلق النَّار على مهنَّد فـأرداه... فارتفع الصراخ وتدخل أخو مهنَّد الذي كان موجوداً في المنزل مع أمِّه وهما يصرخان بعد أن شاهدا مهنَّداً يسقط قتيلاً على الأرض، فأطلق عيَّاش النَّار عليهما أيضاً، بعامل الخوف أو بعامل الرُّعب، أو بعاملٍ لا يعرفه إلَّا هو... فأرداهما أيضاً... ولم يبق في البيت أحياءٌ، فأخذ هو وأخته سارية الطِّفلة فرح ولاذا بالفرار هائمين على وجهيهما، لا يعرفان إلى أين يهربان... فكان أن فرَّا إلى الأراضي العربيَّة السوريَّة من معبر غير شرعيٍّ حتَّى لا يلاحقهما أحد... وكان ما كان ممَّا رويناه سابقاً من أحداث...

هكذا دخل عياش، وسارية ولا أدري لماذا كلُّ أفراد

العائلة السجن نساءً ورجـالاً... ومهنَّد وأمُّه وأخوه في عالم الموت الأبديِّ...

والضَّحية الصَّغيرة البريئة، التي لا ذنب لها، إلَّا أنَّها جاءت إلى الدُّنيا ثمرة حبٍّ جارف، والتي لم تكن تعرف من الدُّنيا شيئاً إلَّا الفرح واللَّعب، تحوَّلت حياتها إلى جحيم... فلم يكن لها مأوى برأي القضاء إلَّا في إحدى الجمعيَّات التي تهتمُّ بالأيتام والمشرَّدين... فأُرسلت إلى هناك... إلى عالم غريب، ليس فيه أمٌّ ولا أب، ولا من يرعى، ولا من يسهر، ولا من يربِّي بعطف وحنان، ويمسح الدُّموع، ويضمُّ إلى الصَّدر عند اللُّزوم، ويحكي الحكايات عند النَّوم، ويقبِّل الوجه عند الصَّباح... إلى عالم مجرَّدٍ من عالم الأمومة والأبوَّة. أجل... كانت ضحية للتَّعنُّت، والتَّشنُّج، والغباء المستبدّ بالعقول والقلوب، وغياب القانون... بعد أن دخلت عائلة كاملة عالم الموت الأبدي، وعائلة أخرى عالم السِّجن الرهيب، وطفلة صغيرة عالم الضَّياع والتَّشرد والحرمان من عطف الأهل وحنانهم، فكانت كما هو عنوان روايتي: «الضَّحيَّة الصَّغيرة».

بعد الجريمة الكارثة، لم يبق من عائلة مهنَّد أحدٌ حيَّاً إلَّا والده المريض، الَّذي لم يكن موجوداً في المنزل ليلة الجريمة،

وإلَّا لكان قُتل هو أيضاً، ولكنَّ، وفي كلّ الظروف، لم يستطع المقاومة كثيراً بعد مصابه الكبير، فمات من جرَّاء حزنه...

ومن عائلة الباشا، بقي خارج السجن ابن مهاجرٌ خارج البلاد، وابنة متزوجة، لها عائلتها وبيتها، رغم أن أجهزة الأمن ضايقتها بعض الشيء، إلَّا أنَّها بقيت خارج السجن... أُقفل السِّتار على عائلتين كانتا حتَّى بالأمس القريب تضجَّان بالحياة، فعمَّ الصَّمت والسكون، وخيَّم الخراب على المنزل الحجري القديم، وتمَّ إقفال الشِّقَّة الجديدة بالشَّمع الأحمر... وبيت عائلة مهنَّد، أُقفل إلى الأبـد... انقطع تواصلي الإنسانيُّ والاجتماعي حُكماً مع العائلة... بل مع العائلتين... مما خلق في نفسي أنا الآخر مصاباً كبيراً وألماً لا تستطيع كلُّ أدوية العالم أن تسكِّنه... وجرحاً لا يندمل أبداً...

الأحداث التالية

هكذا مرَّت الأيَّام، والشُّهور... وكلُّ شيء ماثل في ذاكرتي ومخيِّلتي... لم أستطع أن أتجاوز الحادثة الشَّنيعة... لم أستطع أن أنتزع من قلبي حبّاً كبيراً نما وترعرع لأولئك النَّاس الَّذين لم أعرفهم إلَّا طيِّبين، ورائعين...

وذات يوم من الأيام، وبينما كنت في منزلي أرتاح بعد الظهر، طرق أحدهم الباب، ففوجئت كثيراً حين فتحت لأعرف من الطارق «فلقد كانت ابنة الباشا، التي ذكرتُ أنَّها الوحيدة التي بقيت خارج السِّجن، وهي متزوجة ولها عائلتها... كانت هي وزوجها الَّذي أحبُّه هو الآخر، وأحترمه جدّاً. لم أعرف بأيِّ من الكلمات أستقبلهما... فاكتفيت بكلمات قليلة: أهلاً وسهلاً... تفضلا...

دخلا... وبدأت بالبكاء، دون أن تنطق بكلمة واحدة... ثم رفعت رأسها، ونظرت إليَّ وهي تمسح دموعها، وقالت:

يسألونني عنك دائماً يا دكتور... قلت: وكيف أوضاعهم في السِّجن، قالت: هم في السِّجن، ولكنهم يتقبلون الموضوع... وليس لديهم خيار... ثمَّ أردفت تقول: ماذ يمكنني أن أقول؟؟ هل أقول إنَّ ما جرى صحيح؟؟ أنت يا دكتور تعرف أهلي تماماً... هل هم من هذا النوع من البشر؟؟ هل يمكنهم أن يكونوا مجرمين؟؟ ولكنَّ ما العمل؟؟ هكذا جرى... ولكنَّ لماذا جرى؟؟ هو السؤال الغريب العجيب...!! كان زوجها صامتاً، وكنت أنا صامتاً... كنَّا نسمع... ثم قالت: نحن في مجتمع لا يعرف القانون إلَّا في نهاية الأمر... وفي دولة لا تُطبَّقُ فيها القوانين إلَّا في نهاية الأمر... صمت الجميع هنا لبعض الوقت... أردت أن أخفِّف عنها، إلَّا أنَّها تابعت تقول: هل يستحقُّ مهنَّدٌ وعائلته الموت؟؟ ولماذا؟؟ هل كلُّ ذلك نتيجة لسوء فهم؟؟ يا إلهي...!! يا إلهي...!! وأجهشت بالبكاء مرَّة أخرى...

كان لقاءً مؤثِّراً جدّاً، وكان صادقاً جدَّاً... ولكنَّه لم يكن ليغيِّر من حقيقة الأمر الَّذي جرى شيئاً...

مرت الأيَّام، واستمرَّت العلاقة مع هذه السَّيدة وزوجها، وعبرهما كنت أتلقى وأرسل السَّلام للباشا وللجليلة القابعين

في السجن بجريرة جريمة لم يرتكباها، وهما في أواخر العمر... كنت عاجزاً عن فعل أيِّ شيء إلَّا الاستمرار في المحبة التي ملأت قلبي منذ اللَّحظة الأولى لمعرفتي بتلك العائلة الكريمة التي كان لها أثر في حياتي لا يمحوه الزَّمن...

بعد حوالى سنة من الحادثة الأليمة، تلقيت اتصالاً من شخص لا أعرفه، عرَّف عن نفسه بأنه محامٍ جديد لعائلة الباشا، وأنَّه يريد أن يتحدَّث معي حول أوضاعهم، فرحَّبت به، وكان حديثه هاتفياً، فراح يسألني، أسئلة سخيفة، تارة من الشَّرق، وتارة من الغرب، تنمُّ عن أسلوب تنقصه الخبرة والحنكة... سمعته باحترام حتَّى النِّهاية، واستنتجت منه أنه يبحث عن أبوابٍ للتَّبرئة، وكأنَّ الجريمة لم تقع، فأجبته معتذراً عن إمكانية خدمته فيما يبحث عنه، فأنا وحتى تلك السَّاعة، بل حتَّى هذه السَّاعة أكنُّ لعائلة الباشا حبّاً كبيراً، كما أكُنَّ لعائلة مهنَّد الحبَّ نفسه... وأنا وحتى آخر نفسٍ في حياتي لا يمكنني أن أنسى ما حدث... فهو أمرٌ فظيع جدّاً... وفي ذلك الوقت كانت تسكنني تلك الطِّفلة «فرح» التي هجرها الفرح وهي في أمَسِّ الحاجة إليه، والَّتي حرمتها الرُّعونةُ عالم الأمومة والأبوَّة ودفء العائلة، وألقتها في صقيع التَّشرد واليتم اللَّعين... لم يتصل بي ذلك

المحامي بعد ذلك مرَّة أخرى... واستمر الحال في ذلك الوضع من الرُّكود الجيلديِّ الَّذي بدا وكأنَّه يستمر إلى ما لا نهاية...

مرَّت الأيـام، والشُهور، والسِنون، وبعد حوالى سبعة أعوامٍ، وفي صبيحة أحد الأيَّام، تلقَّيت اتِّصالاً من ابنة الباشا الوحيدة خارج السجن، تطلب منِّي أن أوافيها إلى المنزل، لأمر طبِّي ضروريٍّ، فلبَّيت نداءها بكل محبَّة واحترام ولمَّا وصلت إلى منزلها، وجدتها تنتظرني خارج المدخل الرَّئيسيِّ للمنزل، فأدركت بفطنتي أنَّ أمراً ما قد حـدث... وإلَّا فلماذا تنتظر خارجاً؟؟.

لمَّا ترجَّلت من سيارتي، واتجهت لأصافحها، ابتسمت... وكانت هي المرَّة الأولى التي تبتسم عندما تراني منذ وقوع الجريمة، ودخول أهلها السجن... وقالت: أأنت مستغرب؟؟ فقلت: إن شاء الله خيراً... ودخلنا إلى المنزل... لأجد أمامي تلك السَّيدة الجليلة، أي زوجة الباشا، تجلس داخلاً، وعلامات المرض والتَّعب، والإرهاق على وجهها وجسدها العليل... تبادلنا السلام بحرارة، وشوق، كأمٍ كانت غائبة والتقت ابنها... تحدثت معها، وسألتها عن نفسها وعن صحَّتها، وعن الباشا وعن بناتها... ولكنَّني لم أسألها عن عيَّاش... أخبرتني أنَّ الباشا

والبنات بخير، وأنَّه وهنَّ سيخرجون من السِّجن قريباً، لأنَّ عملية صلحٍ بين العائلتين على وشك أن تتمَّ على أيدي أناسٍ طيبين، وعلى أيدي رجال دين، ورجال قانون... ثم سألتها عن فرح: فقالت: ما تعرفه أنت يا دكتور، هو هو، ولكنَّ عندما تخرج أمُّها من السِّجن سنرى ماذا سنفعل بهذا الموضوع... إلَّا أنَّها لم تخبرني شيئاً عن عيَّاش هي الأخرى...

تماسكتُ قليلاً، واستجمعتُ كلَّ قوَّتي وسألتها بهدوء: يا سيدتي الجليلة: لو أنَّ هذا الصُّلح الَّذي يكاد يتمُّ الآن، لو أنَّه تمَّ قبل أن يحدث ما حدث، ألم يكن أفضل بكثير للجميع؟؟.

أجابت وفي قلبها ألف غصَّة وفي عينيها كلُّ حزن الكون: وما نفع الكلام الآن يا دكتور؟؟ لقد فات الأوان... قلت لها: إن الكلام الآن ينفع الآخرين... لكي لا تتكرَّر الخطيئة... وأن الموعظة يجب أن تأتي ممَّن وقع في التَّجربة، ليكون لها فعلها وصداها، أليس كذلك يا سيدتي؟...

هزَّت برأسها وقالت: ضاع كلّ شيء... وأتمنى من كلِّ قلبي وبصدق المؤمنة أن لا يقع أحد من الناس الَّذين نعرفهم في تجربة كهذه... آمين يا رب - آمين يا رب...

اختصرت الحديث... وأجريت المعاينة الطبية، وهممت

بالرَّحيل، فاستوقفتني وقالت: سيخرج «الباشا» بعد أيَّام... أرجو أن تأتي لزيارته... فأجبتها: بالتَّأكيد سيدتي... بالتَّأكيد...

كانت صحَّة السَّيدة الجليلة في حال سيئة... ولهذا السَّبب تكرَّرت زيارتي لها في منزل ابنتها مرات عديدة... كانت تبدو هادئة ورصينة... وكانت تحاول أن ترسم ابتسامة غير حقيقية على وجهها، ولكنها لم تكن تستطيع، فحزنها كان أكبر بكثير من قدرتها على فعل الابتسامة... كان ذلك الهدوء الظَّاهر يشغلني... ففي كلّ مرَّة كنت أجدها في وضع أسوأ ممَّا سبق...

لم يَطل الوقت حتَّى خرج الباشا من السِّجن... فهرعت لزيارته وفي قلبي شوق كبير لرؤيته، فوجدتُه جسداً معتلاً، تتأكلُه الأمراض، يئن من التَّعب... أخبرني أنَّ سارية وأخواتها قد خرجن جميعهن من السِّجن أيضاً، لكنَّهن رفضن أن يأتين إلى المنطقة... فلقد استأجرن بمساعدة أخيهن الَّـذي في المهجر، شقَّة في العاصمة ليبقين هناك بعيداً عن الأنظار... وأخبرني أنَّ عياشاً بقي في السِّجن لأنَّه هو المرتكب الفعليُّ للجريمة بالرُّغم من الصُّلح الَّذي تمَّ بين بقايا العائلة المنكوبة، عائلة مهنَّد، وعائلة الباشا، فلقد كان على عيَّاش أن يمضي فترة من السّجن طبقاً للأحكام الصَّادرة بحقِّه...

لذلك، ذهب الباشا والسَّيدة الجليلة والتحقا ببناتهما حيث اتخذن مكاناً للسَّكن...

وبعد فترة قصيرة علمت من ابنة الباشا التي تقيم في المنطقة أن والدتها، أي السَّيدة الجليلة قد توفّيت هناك، وتمَّ دفنها هناك... حزنت كثيراً لأنني لم أستطع أن أقوم بالواجب الاجتماعي المطلوب القيام به في ظروف كهذه...

بعد وفاة الجليلة، قرَّر الباشا العودة إلى المنطقة... فعاد مع إحدى بناته، واستأجرا مكاناً ليقيما فيه، فصرت أتردَّد إليه لزيارته، وللاطمئنان إلى صحته... فهو في وضع سيِّىء جدّاً وبحاجة إلى رعاية صحيَّة دائمة تقوم بها ابنته التي تقيم معه ولم أبخل بأي جهد من ناحيتي عندما كان الأمر يستدعي ذلك... وذات يوم، وبينما كنت منهمكاً في عيادتي، أقوم بأشغالي، تلقَّيت اتِّصالاً من رقم مجهول، ولمَّا أجبتُ، سمعتُ صوتاً أعرفه، وأعرفه تماماً، لكنَّني لم أسمعه منذ زمن طويل... كان صوت سيدة سألتني بعد السَّلام هل عرفتني؟؟ فأجبت: وكيف لا أعرفك سيِّدتي، ألستِ سارية؟؟ هل لي أن أنسى الَّذين أحبّهم؟؟ شكرتني، وقالت: أريد أن أستشيرك بأمر ما، هل تسمح؟؟ فقلت: على الرَّحب والسَّعة، أهلاً وسهلاً، تفضَّلي...

قالت: أريد أن أستعيد ابنتي من المؤسَّسة التي ترعاها، فكيف السبيل؟؟.

قلت: إنَّها ابنتك... وما المانع؟؟.

قالت: الحكم القضائي...

قلت: الحكم القضائي، يلغيه حكم قضائي... اسمعي سيدتي عليك أن تكلِّفي محامياً ليقيم دعوى قضائية لاسترداد ابنتك إلى حضانتك، وهذا أمر بديهي...

قالت: فهمت دكتور، لك منِّي كلَّ الشُّكر...

أقفلت هاتفها، ولم أسمع صوتها منذ ذلك الحين، ولكنَّني علمت أنَّها عملت بنصيحتي، واسترجعت ابنتها من المؤسَّسة التي كانت تؤويها، وهي الآن تعيش في كنف أمِّها وتحت رعايتها...

ولكنَّ أسئلة وتساؤلات كثيرة وكبيرة حول هذا الموضوع شغلتني وتشغلني، وتقضُّ مضجعي، ولا أستطيع الإجابة عنها، لا بالمفرد، ولا بالمجمل... إنها تساؤلات مؤلمة ألم الجروح... وهي:

تساؤلات

أولاً : لماذا يرتكب أحدنا الجريمة، ويمضي العمر بعدها يبحث عن المغفرة، والصُّلح... أين كان العقل حينها؟؟ ولماذا لم نبحث عن نقاط اللِّقاء، والالتقاء، والتَّواصل، والتَّقاطع عندما كان الأمر يستدعي التَّعقُّل والهدوء؟؟.

ثانياً : لنفترض أنَّ الصُّلح قد تمَّ فعلاً، وصار حقيقة، فهل الصُّلح يلغي الحقيقة؟؟ إنَّه لا يلغيها، ولا الأحكام القضائية تلغيها، فالجرح يبقى جرحاً، والصلح يشكِّل قفزة فوق الجرح، والأحكام القضائية مثله، ولكنَّ الجرح لا يمكن أن يندمل... فالجريمة تبقى جريمة مهما طال الزَّمن...

ثالثاً : لقد أفرحني جدّاً أن تعود الطِّفلة الصَّغيرة إلى أمِّها... ولكنَّ هل ستجد أباها؟ وهل يمكن لأمِّها مهما امتلكت من شجاعة أن تخبرها بما جرى لأبيها؟؟.

رابعاً : مهما جرى، ومهما طال الزَّمن، ومهما لبسنا أثواب الإيمان والطَّهارة، ومهما هربنا من الواقع، وتناسينا كلَّ الأشياء، هل يمكننا أن نحذف من قرارة أنفسنا حقيقة ما صنعته أيدينا؟؟.

خامساً : كيف لدولة أن تقوم وتستمر، بدون أنظمة وقوانين حقيقيَّة تجعل من النَّاس جميعاً سواسية أمام القانون وتحت سقف القانون، بدون أيَّة استنسابيَّة، ولا أيَّة تفرقة، ولا أي تمييز؟؟.

سادساً : ما قيمة معالجة النتائج لأمر ما، أو لقضية ما، قائمة على الفوضى أساساً؟؟ فكلّ علاج صحيح يجب أن يتناول الأساس، وليس النَّتائج...

سابعاً : إلى متى نعيش في وطن واحد، جماعات منفصلة، لكلٍ منها عالمها وأنظمتها وقوانينها؟؟.

ثامناً : كيف لوطنٍ أن يكون وطناً موحّداً وهو قائم على أسسٍ متصدِّعة لا تقوى على الالتحام...

تاسعاً : كيف يمكن لانتماءاتنا المذهبيَّة أن تحدِّد كيفيَّة انتمائنا إلى الوطن وإلى المجتمع؟؟ فكل قوانين الكون الحديثة تسمح لك بالإيمان كيف أردتَ ومتى أردتَ، ولكنَّ الانتماء إلى الوطن هو واحد ومحدَّد ومجرَّد من الأهواء والمصالح...

عاشراً: إنَّ كلَّ أمر نفعله، وكلَّ إيمان نعتقده، وكلَّ مشكلة نفتعلها، أو نقع فيها، يجب أن لا تترك خلفها، أو خلفنا ضحايا بالمطلق، وخصوصاً ضحايا صغيرة، تعيش نتائج أحداث لم ترتكبها هي، ولا علاقة لها بها لا من قريب ولا من بعيد...

النهاية

هكذا استطاعت سارية أن تستعيد ابنتها إلى كنفها، ولكنها لم تستطع أن تعيدها إلى دفء أبيها مهنَّد، الَّذي قضى على يد عيَّاش... هو وأمُّه وأخوه... ومن ثم أبوه...

سارية تقيم مع ابنتها وأخواتها بعيداً عن البيت والقرية والذِّكريات، لا يمكنهنَّ المجيء أبداً...

الباشا مريض جـدّاً، بل أستطيع أن أقول إنَّه كتلة من المرض... يعيش مع إحدى بناته لتهتمَّ به، ومع كومةٍ من الأدوية... والويل إن نسي حبَّةَ دواء أو إن لم ينتبه لأخرى... تنهار حالته الصحية ويلزمه وقت طويل ليستعيد جزءاً منها... وأخيراً وأثناء طباعة هذه الرواية توفي الباشا بعد أن نهشته أنياب المرض.

والسَّيِّدة الجليلة توفِّيت... وتمَّ دفنها كغريبة في مكانٍ بعيد... وفرخ... لا أدري إن كانت تعيش فرحاً أو حزناً أو كآبة

لا مثيل لها... لا أدري إن كانت تعيش حقيقة أو كذبة كبيرة، ولكنَّ كلّ ما أعلمه وأدريه تماماً، وأعرفه وأؤمن به، أنَّها هي الضَّحيَّة الصَّغيرة بالرُّغم من أنَّها أصبحت يافعة وأتوقَّع أنَّها جميلة جدّاً... ولكنَّها أصغر ضحايا هذه الرواية التي آلمتني ولامستني في الصميم...

مؤلفات الكاتب

١ - التوأم الأول، شعر.

٢ - التوأم الثاني، شعر.

٣ - التوأم الثالث، شعر.

٤ - قانا وأخواتها، شعر.

٥ - السيِّد، تحليل سياسي.

٦ - شذرات، شعر.

٧ - رأي ورؤية في العمل السياسي، تحليل سياسيأ

٨ - إلى الَّذين أحبهم، شعر.

٩ - الضحيَّة الصغيرة، رواية.

١٠ - جرح من الذاكرة، رواية.

إنَّ كلَّ حبٍّ لا يقوم على فهم حقيقيٍّ للآخر، واقتناع حقيقيٍّ بمشاركة الآخر حياته في السَّرَّاء والضَّراء بعيداً عن التملّك والاستئثار، هو وهم مطلق.

د. مصطفى عبد الفتاح

الدكتور مصطفى عبدالفتاح، مواليد عام ١٩٥٧- حيزوق - عكار.

- **تلقَّى علومه في مدرسة القرية وثانوية حلبا الرسمية، وتخرّج طبيباً عامّاً من جامعة بخارست - رومانيا.**
- **عضو نقابة الأطباء، وعضو اتحاد الكتّاب اللبنانيين.**



ISBN 978-614-432-422-6
